

الفصل الرابع

★ فيما يكون للباطل من إملاء واستدراج .

الآيات

١ - ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

(آل عمران : ١٧٨)

٢ - ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۝١٨١ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمَلِّ لَهُمْ آيَاتٍ كِيدَىٰ مَتِينٌ ﴾

(الاعراف : ١٨١ - ١٨٣)

٣ - ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(الرعد : ٣٢)

٤ - ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾

(ابراهيم : ٤٢)

٥ - ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ

﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ
مُوسَىٰ فَأَمَلَتْ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

(الحج : ٤٢ - ٤٤)

٦ - ﴿ وَكَأْتِنِ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا
وَالِىَ الْمَصِيرُ ﴾

(الحج : ٤٨)

٧ - ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٦﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ
مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٧﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٨﴾ فَأَصْبَرَ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٩﴾ لَوْلَا
أَنْ تَذَرَهُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَشِيدَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٥٠﴾ فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ
فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(القلم : ٤٤ ، ٤٥)

٨ - ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ﴾

(الزمل : ١١)

٩ - ﴿ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤْدًا ﴾

(الطلاق : ١٧)

قبل الحديث عما يكون للباطل من املاء واستدراج أود أن أشير إلى علاقة هذا الفصل

«بانتصار الحق وظهوره» وهو عنوان الباب السادس الذى يندرج تحته «ما يكون للباطل من إملاء واستدراج» عنوان هذا الفصل . فان انتصار الحق وبقاءه يقابله اندحار الباطل وذهابه .

وقد يغيب ذلك عن كثير من اولئك الذين تخدمهم المظاهر عن الحقائق وتصرفهم الرغائب عن العواقب ويؤخذون بالمقدمات عن النتائج .

قد يخدمهم ما يرونه من زهو الباطل وزينته . فى عمر محدود وزمن محدود . وتصرفهم رغبتهم فى متاع الحياة عن حقيقة الحياة وحب الأشياء عن عاقبة الأشياء . ويحبون العاجلة وهى مقدمة ويدرون الآخرة وهى النتيجة والعاقبة .

عندئذ يفتنون ولا يستطيعون أن يدركوا أن أهل الباطل يملئ لهم ويستدرجون وأن عاقبة أمرهم كما ذكر الله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الانعام : ٤٤ ، ٤٥)

فلزم الحديث عما يكون للباطل وأهله من إملاء واستدراج حتى لا يظن أن ما يعطى له وما يفتح عليه دليل تمكين وبقاء وغلبة وانتصار . وقد يحمل ذلك بعض الناس على اتباع الباطل ومعاداة الحق أو نسيانه . وقد يسؤل لهم أنهم يتعاملون مع الواقع وهم يرون ما للكفر من غلبة وما لأهله من علو فى الأرض فيسارعون فيهم ويسلكون سبلهم . فاذا تبدل الحال وقع الندم واقبلت الحسرة ورأيت أولئك الذين تمنوا مكان المستدرجين يقولون :

﴿ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاذِبُ وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

(القصص : ٨٢)

وهذا أمر قد يتكرر في حياة الناس ولا يأخذون العبرة مما مضى والعظة مما يقع وينسون أن سنن الله لا تجامل ولا تحابي وأن الحق هو المنتصر وله العاقبة مهما لقي من جفاء وصاحب أهله من بلاء. وأن الباطل ذاهب زاهق مهما أعطى من إملاء وأوتى أهله من عطاء.

من أجل ذلك رأينا بيان القرآن في استدراج المكذبين وإمهالهم داعيا إلى التمسك بالحق والثبات عليه محذرا من الاغترار بالباطل أو الركون إليه ورأينا في مصارع المكذبين على مر العصور عبرة للإنسان حيث كان وتبصرة لأهل الإيثار بالحق وتثبيتا لهم وموعظة وذكرى.

والإملاء والاستدراج الذي يكون لأهل الباطل فيه امتحان للنفوس وتمييز للصفوف.

فكم من ناس تستخفهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها. وقليل منهم أولئك الذين ينظرون الأفق البعيد ويرون طلائع الفجر. والناس تغمرهم ظلمات الليل. وقليل منهم من يرقب الغد ويخشى ما يقع فيه. مع أن الغد لنا ظره قريب والاستدراج والإملاء يجعل صاحبه يذكر يومه وينسى غده ويغلق عينه عما يقع في الأرض من حوله. والأرض ساحة استقبال ووداع وعلى ظهرها أحياء وفي جوفها أموات ولكن المفتون بديناه لا يرى ما يراه الناس وهو فرح بطر يرى الموت لغيره ولا يراه لنفسه.

وقد اقتضت حكمة الله ورحمته أن تكون العبرة فيمن يستدرجهم ويملى لهم عبرة للزمن كله وآية تحذر من اتباع الباطل وتدعو إلى اتباع الحق.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ
دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۚ ﴾

(محمد: ١٠)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ
ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿

(غافر: ٢١ - ٢٢)

وسنن الله مع الخلق لا تبدل ولا تتحول يستدرج من يستدرج ويملي لمن يملئ له ثم
يؤخذ وهو في قمة نشوته وفي غمرة بطره وغفلته ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة
فإذا هم مبلسون ﴾ .

وما من احد من الخلق يُعجز أمره . وما من شيء يعزب عن ربك أو يخفى شأنه .
والاخرى كالاولى مأخوذون بما عملوا وسنن الله لا تجامل ولا تحابي .

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا
وَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ٤٣ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ
كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿

(فاطر: ٤٣ ، ٤٤)

ألا إن من رحمة الله بخلقه أن يبين لهم ما هم صائرون اليه بأعمالهم حتى لا تشغلهم
المقدمات عن النتائج والרגائب عن العواقب . وفي آياته في الأنفس وفي الآفاق عون لهم
على اتباع الحق واجتناب الباطل - وهم يرون بأعينهم آثار من كذبوا بالحق فاستدرجوا
وكان عاقبة أمرهم خسرا .

ولا حجة بعد إرسال الرسل وانزال الكتب وتبين الرشد من الغي ولا عذر لأحد بعد بيان وهدي:

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَٰهُ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

(النساء: ١١٥)

ومن البيان ما ذكر من استدراج أهل الباطل ومن إملاء لمن كذبوا بالحق. ليعلم أن ما يملى لهم ليس بخير لأنفسهم وليس بنصر لباطلهم وإنما هي الإهانة في أشد صورها أن يؤخذ الإنسان في إملاء وأن يعذب في استدراج:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا
نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

(آل عمران: ١٧٨)

وفي ذلك انتصار للحق أي انتصار وإبطال للباطل أي إبطال. وأي انتصار لأصحاب الحق أعظم من أن يأتيهم نصر الله بعد فتنة وابتلاء واستيثاس وزلزال ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟﴾.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا
جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَّشَأٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ ﴾

(يوسف: ١١٠)

وأى هوان لأهل الباطل أشد من أن يأتيهم بأس الله وهم في نشوة فرح بما أوتوا ولذة بما أعطوا. يأتيهم بغتة وهم في غفلة ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾. فان الإملاء الذى يكون لهم يغيرهم بالاستعاضة والمزيد من المظالم والآثام ﴿إنما نملى لهم ليزدادوا

إثماً ﴿. فإذا أخذوا . كان أخذاً مما أحبوه إلى مصير لا يفلتون منه ولا يصرفون عنه . . ﴿ان الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته﴾ . ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (هود : ١٠٢) . كما جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى موسى رضى الله عنه .

والاستدراج فيه ما فيه من إهانة للدابة المستدرجة حين تؤخذ من لذة إلى لذة . على التدريب وهى تظن فى غباء أنها تصل إلى مزيد من متاع ومنفعة وما تدرى أنها تؤخذ إلى عقاب وحسرة :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

(الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣)

«قال بعضهم معناه سنأخذهم قليلا قليلا ولا نباغتهم ، وقيل معناه سنأخذهم من حيث لا يحتسبون ، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يفتبطون به فيركنون إليه ويأمنون به فلا يذكرون الموت . فيأخذهم على غرثهم أغفل ما كانوا ولهذا قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، لما حمل إليه كنوز كسرى «اللهم انى أعوذ بك أن أكون مستدرجا ، فإنى أسمعك تقول : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾»^(١) .

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَٰذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

(القلم : ٤٤ ، ٤٥)

الحديث الذى يكذبون به يحتمل أن يكون القرآن وهو الحق ، ويحتمل أن يكون يوم القيامة وهو حق .

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾^(٢) .

(٢) تفسير الماوردى .

(١) لسان العرب لابن منظور مادة : درج .

أحدها : سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون ، قاله السدى .

الثانى : تُتبع النعمة السيئة ونسيهم التوبة : قاله الحسن .

الثالث : نأخذهم من حيث درجوا ودبوا ، قاله ابن بحر .

الرابع : هو تدرجهم إلى العذاب بادنائهم منه قليلا بعد قليل حتى يلاقيهم العذاب من حيث لا يعلمون لأنهم لو علموا وقت أخذهم بالعذاب ما ارتكبوا المعاصى وأيقنوا بآمالهم .

الخامس : ما رواه ابراهيم بن حماد : قال : كم من مستدرج بالاحسان إليه وكم من مغبون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه .

والاستدرج : النقل من حال إلى حال كالتدرج . ومنه قيل درجة وهى منزلة بعد منزلة : ١ هـ .

ذاك هو المصير لمن كذب بالحق وتلك هى العاقبة لمن صدَّ عنه واحتسمى بالباطل . والله وحده هو الذى يستدرج هؤلاء ويملى لهم . الله الذى لم يخافوه وهم يخالفون رسوله ويحاربون من يهدون بالحق وبه يعدلون . هو وحده هو الذى يستدرجهم ويأخذهم ويمهلهم ولا يمهلهم . الله الذى ينسون قوته ويذكرون قوتهم «يرخى لهم العنان ويملى لهم فى العصيان والطغيان . استدراجا لهم فى طريق الهلكة ، وامعانا فى الكيد لهم والتدبير . ومن الذى يكيد لهم ؟ إنه الجبار ذو القوة المتين . ولكنهم غافلون والعاقبة للمتقين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون» .
﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ .

وهو تهديد مزلزل . . والجبار القهار القوى المتين يقول للرسول صلى الله عليه وسلم - خل بينى وبين من يكذب بهذا الحديث . . وذرني لحربه فأنا كفيل به . ومن هو هذا الذى يكذب بهذا الحديث ؟ . . إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف . هذه النملة المضعوفة . بل هذه الهباءة المثورة . بل هذا العدم الذى لا يعنى شيئا أمام جبروت الجبار القهار العظيم . . فيا محمد . خل بينى وبين هذا المخلوق . واسترح أنت ومن معك من المؤمنين . فالحرب معى لا معك ولا مع المؤمنين الحرب معى . وهذا المخلوق

عدوى . وأنا سأتولى أمره . فدعه لى . وذرنى معه . واذهب أنت ومن معك فاستريحوا .
أى هول منزلزل للمكذبين ، وأى طمأنينة للنبي والمؤمنين - المستضعفين ؟ .

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير
الضعيف . ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ .

وإن شأن المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين . لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه
التدابير . ولكنه - سبحانه - يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . وليعلموا
أن الامان الظاهر الذى يدعه لهم هو الفخ الذى يقعون فيه وهم غارون . وأن إمهالهم
على الظلم والبغى والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من
الله ليحملوا أوزارهم كاملة . ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب . مستحقين للخذى
والرهق والتعذيب .

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلا ورحمة ، والله - سبحانه -
يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك النذير - وهم بعد
ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضحت الامور .

انه سبحانه يمهل ولا يهمل . ويملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته . وهو هنا يكشف
عن طريقته وعن سنته التى قدّر لها بمشيئته ويقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ذرنى
ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ . وخل بينى وبين المغترين بالمال والبنين والجاه والسلطان
فسأملى لهم . وأجعل هذه النعمة فخهم ، فيطمئن رسوله ويحذر أعداءه . ثم يدعهم
لذلك التهديد الرعيب^(١) .

وذاك ما وقع للمكذبين بالحق من قبل وما جرى مع المستهزئين بالرسول :

﴿ وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ

أَخَذْتُمُوهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(الرعد : ٣٢)

(١) الأستاذ سيد قطب ، فى ظلال القرآن .

فترك أهل الباطل فترة ليس نسياناً لهم أو غفلة عنهم . والاملاء للظالمين ليس تكريماً لهم كما يظنون - أو اهانة لغيرهم - كما يتوهمون . وانما هو الاستدراج إلى العذاب من حيث لا يشعرون :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ
الظَّالِمُونَ ﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم
مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَكَنتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَعْشَى
وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا

بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا لَوْلَا أَلْتَبَسَ ﴿

(إبراهيم : ٤٢ - ٥٢)

ومن يتدبر القرآن ير ما وقع من قبل مع أقوام وأقوام وير ما يقع مع أمثالهم في كل زمان ومكان ﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿

(الحج : ٤٢ - ٤٤)

والأرض قد سُكِنَتْ من بعد هؤلاء وأولئك وبقيت آثارهم خاوية خالية تدل عليهم وتسوق العبرة لمن بعدهم :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿

(غافر : ٨٢)

وكم في الأرض من عبر وعظاات وكم فيها من دُورٍ قد خلت وأقوام قد ذهبت وقرى ظالمة قد أخذت ودمرت فما بكت عليهم السماء والأرض . ولا رُئى منهم - بعد هلاكهم - حراك . ولا سمع لهم صوت :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿

(مريم : ٩٨)

ويهلكهم تخاطب أجيال من بعدهم فيعى الدرس ناس ويعمى عنه آخرون ﴿فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها﴾ .

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ فِيهَا رَسُولًا مِّنْ لَّدُنَّا
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا
أَوْءَاذَانٌ يُّسْمِعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ
يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا
تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ
ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾

(الحج : ٤٥ - ٤٨)

واذا كنا قد رأينا من فتن بزيئة قارون وتمنى أن يكون له ماله . ومن أبصر حقيقته -
وأنه مستدرج وبَصَرٌ غيره . فان ساحة الحياة الدنيا لا تخلو من هؤلاء وأولئك . لا تخلو من
أولئك الذين يريدون الحياة الدنيا فيتمنون ما أوتى قارون . ومن الذين يقاومون هذا
الميل ويُبَلِّغُونَ ويهدون بالحق وبه يعدلون .

وآيات الله تتلى على هؤلاء وأولئك . وستظل تتلى وتسمع . فلا يستدرج أولو النعمة
وهم على جهل بالعواقب . ولا يملئ لظالم دون بيان وتحذير وانذار . ولا يدعى أحد إلى
الحق دون تبصرة بحقيقة ما يدعى إليه أو ينهى عنه . ودون بيان للعاقبة في الحالين .

سيظل حديث القرآن يسمع أبد الدهر ويقرأ آناء الليل وأطراف النهار ويشاهد تأويله
في شئون الخلق ويرى تصديقه في القضاء الواقع فيهم والقدر النازل بهم .

فلا يرى الباطل على غير ما أفاد القرآن وبين في ذهابه وخسران أهله . ولا يرى الحق

دون ما قرر القرآن وأظهر في نفعه ومكثه وحسن عاقبته ليعتصم من يعتصم بالحق في طمأنينة وثقة ويستمسك من يستمسك به في يقين وثبات وهو يرى النتائج والعواقب لمن اتبع الحق ولمن اتبع الباطل .

سيظل حديث القرآن محذرا ومبصرا ومذكرا ومنبها ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ ﴿فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ (طه : ١٢٣ ، ١٢٤) .

وأى عذر لمكذب وهو يبلغ بالعاقبة قبل أن تكون ، وبالنسائج قبل أن تقع . ويدعى إلى اتباع الحق في سعة من أمره . واجتناب الباطل قبل أن يقع فيه . أو تحيط به خطيئته .

أى عذر له في اصرار وكفر وتكذيب وهو يسمع ما يسمع من تهديد ووعيد :

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا ۝١٤ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ فَكَيْفَ تَنْفِقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾

(المزمل : ١١ - ١٩)

ان القول في ذلك كله قول فصل وما هو بالهزل . والحديث حديث حق . في كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إن إمهال المكذبين إلى حين . وحين يرون ما يوعدون . تتضاءل الايام والسنون :

﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ
فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾

(الاحقاف : ٣٥)

ان هذا القول الفصل لا يغيب دليله ولا يبطل تأويله . وما أحد بقادر أن يفر من عقاب . أو يفوت من حساب . ما أحد بمستطيع أن يفلت من موت . أو ينفذ من أقطار السموات والارض ولا غيبة ولا غفلة عن الخلق ولا نسيان ولا فوت .

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ
﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كُنَّا غَايِبِينَ ﴾

(الاعراف : ٦ ، ٧)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾

(المؤمنين : ١٧)

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ
لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾

(طه : ٥١ ، ٥٢)

القول قول فصل . وما هو بالهزل . وفي الانسان أدلته :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ
الْصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا
لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّدْعِ
﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾
وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُودًا ﴾

(الطارق : ٥ - ١٧)

أرأيت ان امهال الكافرين واستدراج المكذبين لم يكن دون بيان وتحذير ؟
أرأيت كيف أفاض القرآن الكريم في التبصرة والتذكرة . وجعل الانسان وهو في سعة
من أمره يبصر ما هو مقبل عليه ويرى ما هو صائر إليه ؟
لا إيهام ولا غموض ولا عتمة في المقدمات أو النتائج .

فمن اتبع الحق عرف ما يؤدي إليه ومن اتبع الباطل عرف ما يصير إليه . ومن جاء إلى
الدنيا يعلم أنه يمر بها ولا يقيم . ومن اعطى من متاعها يوقن أنه إلى زوال وهو يرى بعينه
أن ساحة الأرض تستقبل في كل لحظة ناسا وتودع آخرين . فلا الذاهب حمل من متاعها
شيئا ولا القادم فيها يقيم .

كما يرى أن الناس لا يُستأذنون وهم يقدمون أو يرحلون - وحاشا أن يكون :

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾

(لقمان : ٣٤)

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ ﴾

(النحل : ٤٠)

هذا القول الفصل هو الحق الذي يرى الانسان صدقه في نفسه وفي كل شيء من
حوله . والمستدرج قد غفل عن نفسه بل عمى عن الحق الذي يخاطب به حتى في النعمة
التي يستدرج بها والتي لو تدبرها لردته إلى الحق وكفته عن الباطل . فما غاب الحق أبدا
ولا توقف بلاغه في إملاء أو استدراج . ولقد حاول الرجل المؤمن - وهو يحاور صاحبه أن
يدله على الحق من خلال ما أعطى من نعمة تُذكر بمشيئة الله وفضله . فأبى الحق وأسند
الفضل لنفسه . ووقع في الباطل والنعمة تدله على الحق وما أفاق لدلالة النعمة وما تدعو
إليه إلا عندما أحيط بثمره عندئذ أدرك أنه كان مبطلا حين أشرك :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
 بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا
 قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى
 رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنْ
 السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ
 تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ
 عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ
 بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
 مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

(الكهف: ٣٧ - ٤٤)

مستدرج ذكر فلم يذكر. ودعى إلى الحق فلم يصبر. وأصر على الباطل في نسبة
 العطاء إلى نفسه وإشراكه بربه. وعندما أحيط بشمره أفاق من غفلته وتحسر على تعلقه
 بباطل قد ذهب. ونطق بالحق وتنى أن لو استمسك به ولم يجد عنه ﴿ياليتني لم أشرك
 بربي أحدا﴾. والنعمة من قبل زوالها ومن بعد تدل على هذا الحق في الاعتقاد وترشد
 إليه. فما غاب الحق ولا توقف بلاغه في إملأ أو إهلاك. ولو أحسن الإنسان التدبر لرأى
 دلالة الحق في كل شيء وأخضع نفسه للحق في كل شيء. والحق في النعماء أن يشكر
 معطيها ولا يكفر. وألا يرى الإنسان نفسه بها بل يرى نفسه بالحق الذي تدل عليه وتدعو
 إليه. ودلالة النعمة على من أنعم والخلق على من خلق هي الحق الذي تصان به النعمة
 ويشيع البر والتراحم. وإنما يجيء الطغيان بالنعمة وتتقطع الروابط حين تنسب النعمة
 لغير من أعطاها ويعبد من لا يخلق. وهذا هو الباطل الذي لا سند عنده ولا برهان له.

وذاك ما يبرأ منه كل انسان في ساعة موت أو عذاب :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا
 بِهِ مُشْرِكِينَ ۚ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا
 سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۚ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴾

(غافر: ٨٤، ٨٥)

نعوذ بالله أن نستدرج بنعمة أو نفتن بعتاء . ونسأل الله ألا يفتنا بما أنعم به علينا وأن
 يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه .

ومن الحديث عن استدراج المبطلين إلى الحديث عن العاقبة لنرى ما يكون فيها ولن
 يكون الفوز والانتصار:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ
 حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ﴾

(الشورى: ٧)

